الفصل الأول

نظرة عامة في التاريخ الإداري والدّيني والاجتماعي لفِلِسْطين

obeikandl.com

obeikandl.com

١- أهم المراحل في تاريخ الأديان

فِلِسْطين هي المنطقة الواقعة في الطرَف الجنوبيّ الشرقيّ للبحر المتوسط، بين سوريا ومصر والبحر المتوسط ونهر الأردن، استمدّت هذه المنطقة التاريخية -وهي تُمثّل جِسْرًا بين قارّتيْ آسيا وإفريقيا- اسمها من قبائل "الفِلست" التي قَدِمت إلى هذا المكان عن طريق البحر أثناء هجرتها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

قَدِمَ كثير من الأقوام منذ عصور ما قبل التاريخ إلى هذا المكان واستقرّوا فيه، والعَمالِقة هم أول الأقوام التي سكنت هذه المنطقة، وهم كما تخبرنا التوراة أقدم أمة في العالم، وهم أجداد العرب كما يرى المؤرّخون العرب وبعض الباحثين، وعاش في هذه المنطقة في عصور ما قبل الميلاد الكنعانيون وهم من الأقوام السامية، كما سكن الفِينيقيون والآراميون بعض مناطق الساحل كذلك، وتطورت حضارة الزراعة والتجارة في هذا العصر الذي عُرف بعصر "ديار كنعان"، وظهرت فيه أول أبجدية، ثمّ قَدِمَ إلى المنطقة جماعات الفِلست وهم من "أقوام البحر"، بعد ذلك وقعت المنطقة تحت احتلال مصر خلال هجرة الأقوام إليها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأَسّست هذه الجماعات قِطاع غزّة كما هو اليوم، وخمس مُدن أخرى مُجاورة له، واتخذوا منها جميعًا وطنًا لهم.

اختلط الفِلِسْت الذين أُثير الجدَل في مسألة عِرْقهم بعد فترة من الزمن بسكان البلاد المحلّيّين، وفقَدوا خواصهم الذاتية بينهم، وأثناء استقرار الفِلست فيها على ضِفاف البحر المتوسط هاجر إليها بنو إسرائيل الذين كانوا في مصر، وفرّوا بقيادة سيدنا موسى عليه السلام من ظلم فرعون إلى أرض الميعاد، دخل بنو إسرائيل في حرب مع العَمالِقة أصحاب

الأرض الأصليين، ومع الأقوام السامية المُختلفة وأقوام الفِلست، ونجح بنو إسرائيل في الاستيلاء على جزء كبير من الأرض في المنطقة، وأقاموا عليها أول دولة لهم في نهايات القرن الحادي عشر قبل الميلاد.(٢)

آل العرش إلى سيدنا داود عليه السلام بدلًا من شاؤل (طالوت) أول ملوك بني إسرائيل، وفتَح القُدْس واتخذ منها عاصمة لدولته، وضمّ تحت حكمه كل الجماعات في المنطقة، واستمرّ حُكْمه ثلاثًا وثلاثين سنةً، بَيْد أن مملكة بني إسرائيل عاشت زهرةَ أيامها في حُكْم سيدنا سليمان (٩٧٢- ٩٣٢ ق.م)؛ فقد ضمّ سيدنا سليمان عليه السلام إلى حُكْمه فِلِسْطين وما يجاورها وصولًا إلى سوريا، وأقام في القُدْس أولَ مَعْبد عُرف باسم "مَعْبد سليمان"، ولكن وحدة الدَّوْلة تفتّت بوفاة سيدنا سليمان عليه السلام، وانقسمت إلى مملكتين مُستقلتين؛ فظهرت مملكة بني إسرائيل في الشمال وعاصمتها سامرية (سامانا)، ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها القُدْس (أورشليم)، ولم تدُم هاتان المملكتان طويلًا، بل آلت الأولى إلى الآشوريّين عام ٧٢١ ق.م، وقضى على الأُخرى حاكمُ بابل بختنصر عام ٥٨٦ ق.م، ولم يكتفِ الآشوريون والبابليون بالقضاء على هذه الممالك، بل قاموا بطَرْد آلاف السكان منها إلى ما بين النهرين.

استولتِ الإمبراطورية الفارسية بعد ذلك على فِلِسْطين، ونال العِبْرانيون في تلك الفترة (٥٣٩ ق.م) قَدْرًا من الحرية، وعاد ٤٠٠٠٠ شخص من أُسر بابل بعد أن حرّرهم الإمبراطور الفارسيّ قورش، وأُعيد إنشاء أسوار المدينة ومَعْبد سليمان الذي هدَمه البابليون، وبعد وفاة الإسكندر الأكبر الذي احتلّ سوريا ومصر، تحوّل حكم المنطقة بعد عام (٣٢٣ ق.م) من يد الإغريق إلى البطالمة في مصر، والسلوقيين في سوريا.(٣)

(٢) م. لطف الله قارامان، موسوعة وزارة الشؤون الدينية الإسلامية، فِلِسْطين، ج ١٣، نشر وقف الشؤون الدينية.

(٣) قارامان، مصدر سابق، ص ٩٠.

استولى الرومان على أرض فِلِسْطين عام ٦٣ ق.م، وصارت خلال حكم الرومان الذي استمرّ مدة طويلة مسرحًا لتمرّد اليهود وثوراتهم بين الحين والآخر، ونجم عن تمرّدهم -وخاصة في المرة الثالثة- طَرْدُهم خارج القُدْس، وقام الرومان بعد عام ١٢٥م بإعادة إعمار القُدْس بصِبْغة مدينة رومانية، وجعلوا منها عاصمة لفِلِسْطين، وأطلقوا عليها اسم "إيليا كابيتولينا"، واسمها العربي "إيلياء".

واستعادت مدينة القُدْس قُدْسيّتها مرّة أخرى بعد مولدِ سيدنا عيسى عليه السلام في بلدة "الناصرة" الفِلِسْطينية في فترة الحُكْم الرومانيّ، وبعثته بالشريعة المسيحية، واعتناقِ الإمبراطور الرومانيّ قِسْطَنْطين للمسيحية في عام ٣١٢م؛ إذ أنشأ قِسْطَنْطين فيها بيوتًا للعبادة، وأصدر أمره ببناء أول كنيسة كبيرة هناك عُرفت باسم مَرْقد عيسى.

للقُدْس إضافة إلى هذا أهمية كبيرة عند المسلمين؛ لأن العروج بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج كان من المسجد الأقصى في القُدْس، وقد غزا المسلمون فِلِسْطين مِرارًا عَقِب وفاة رسول الله ﷺ ابتداء من حُكْم الخليفة سيدنا أبي بكر ثمّ سيدنا عُمَر رضي الله عنهما، وفتَحتْ المنطقة أبوابها أمام المسلمين في الحرب التي دارت رَحاها في منطقة أجنادين بين الرملة وبيت جبرين، وفُتِحت بعدها مباشرة مُدن أُخرى مثل سباستيه ونابلُس وليد ويوبنه وأمواس، وتحتلّ معركة اليرموك (١٥/٦٣٦م) التي انتصر فيها المسلمون مكانة مُهمّة في تاريخ فِلِسْطين؛ فقد أصبح المسلمون بهذا النصر أكثر قوة في المنطقة، وقاموا بمُحاصرة المدينة حتى وصلوا إلى القُدْس، وأسفرت معركتا أجنادين (٦٣٤م) واليرموك (٦٣٦م) عن ضمّ جزء كبير من أرض فِلِسْطين إلى حُكْم المسلمين، أما القُدْس فأصبحت أرضًا إسلامية بالصلح عام (٦٣٧م)، وكانت فِلِسْطين قد تحولت بتحركات معاوية العسكرية إلى أرض إسلامية خالصة، وكانت دماء الصحابة رضي الله عنهم هي الثمن.

وفي عصر الأمويين تمّ توطين عدد كبير من القبائل العربية في فِلِسْطين؛ فقد أولى الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد اهتمامًا كبيرًا بفِلِسْطين وخاصة القُدْس.

وفي عصر العباسيين تحوّلت فِلِسْطين وسوريا إلى ولاية مركزها الرملة، وبعد وفاة هارون الرشيد عام (٨٠٩م) ساد البلادَ في عصر الأمين بعضُ الفوضى، وسقطت المنطقة تحت سيطرة الطولونيين (٨٦٨-٩٠٥م) لتعود بعدها إلى سيطرة العباسيين، وتستقرّ في النهاية تحت نفوذ الإخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٩م)، وفي عام (٩٦٩م) استولى الفاطميّون على فِلِسْطين بعد أن آل إليهم حُكْم مصر لمدة قصيرة.(٤)

ظلّت القُدْس بعد الفاطميّين تحت سيطرة السلاجِقَة والتُّرْكمان طِيلة رُبْع قَرْن، فقد دخل أطسيز بن أُوَاق -وكان من أبرز قادة السلاجِقَة- إلى القُدْس عام (٤٦٣هـ - ١٠٧١م) أثناء هجمات السلاجِقَة على الغرب، وأَبْعَد الواليَ الفاطميّ عن الحُكْم، وأحْكم سيطرته على المدينة، وأمر بقراءة الخُطْبة باسم سلطان السلاجِقَة "ألب أرسلان (*Alparslan*)" والخليفة العباسيّ "القائم بأمر الله"، ثم انتقلت الأراضي الفِلِسْطينية بعد ذلك إلى حُكْم الفاطميّين مرّة أُخرى، ولكن القائد "أطسيز (*Atsız*)" قام بتجهيز جيش جديد، واستردّ كل القلاع والمُدن التي فقَدها وعلى رأسها القُدْس، وإن كان "تُتُش (*Tutuş*)" أخو السلطان ملكشاه قد أسّس الدَّوْلة السلجوقية في سوريا وفِلِسْطين عام (١٠٧٩م)، إلا أن الفاطميّين قاموا بالاستيلاء على القُدْس مرّةً أخرى عام (١٠٩٨م)، ولكن حُكْم الفاطميّين في القُدْس لم يدُم طويلًا؛ فقد كانت أوربا تعيش في هذا العصر أشدّ المِحَن، وعمّت فيها فوضى كبيرة بسبب أمور كثيرة، منها المجاعة التي ضربت البلاد منذ سنوات، والفَقْر، وصِغَر حَجْم رُقَعة الأراضي،

(٤) قارامان، مصدر سابق، ص ٩١.

وتحوَّل الوضع فيها إلى حالة تهزّ سُلْطة الباباويّة؛ فقامت الباباويّة بإيجاد حلّ لهذا الموقف، ووجّهت أنظار الناس نحو الشرق والقُدْس وما حوله بشكل خاص؛ لتفرِض سيطرتها على الأراضي الإسلامية الغنية التي تزداد قوةً خارج أوربا، وتستعيد الأراضي المسيحية المُقَدسة؛ لأن أراضي الشرق كما ذُكرت في الإنجيل هي الأرض التي "يسيل اللبن والعسل في طُرُقاتها".(٥)

أسهمت هذه الادعاءات وما شابهها في تجميع الآلاف من أوربا حول البابا في مدة قصيرة، وبدأت بذلك الحمَلات الصليبية (١٠٩٨م)، وقام "الصليبيُّون" -وهم زُمْرة يُعلّقون الصليب في أعناقهم- بتخريب الأماكن التي كانوا يمرّون بها، وقتلوا بوحشيّة كل من يمرّون به في طريقهم، ونالت القُدْس نصيبها من هذا أيضًا؛ فقد قتلوا آلاف المسلمين في القُدْس، وتعرّضت للاحتلال الصليبيّ، وظلّت فِلِسْطين تعيش حالة من الفوضى طِيْلة فترة احتلال الصليبيّين إلى أن فتَح صلاح الدين الأيوبيّ القُدْس عام ١١٨٧م.

بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبيّ على الفَوْضى في القُدْس ضمّ الموْصِل وحلَب إلى دولته، ونجح في تحقيق الأمن والوحدة في دولته، ثمّ قاد حمْلة على الصليبيّين بعد هجومهم على قوافل المسلمين التجارية، وإثارتهم للشغب، وأنزل بهم هزيمة مُنكرة في معركة "حِطّين" عام ١١٨٧م، وعادت مدينة القُدْس مُجدّدًا إلى المسلمين في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر عام ١١٨٧م الذي يُوافق ليلة المعراج.(٦)

أحسن صلاح الدين الأيوبيّ -بعد أن استردّ القُدْس- مُعاملة الصليبيّين في المدينة، وخاصة النساء والأطفال ورجال الدين، وقدّم لهم كافة

(٥) الإنجيل، **الخروج من مصر**، ٣:٥.

(٦) رمضان شَشَنْ، "**الأيوبيون**" **تاريخ الإسلام العظيم من الميلاد حتى يومنا الحاضر**، المجلد السادس، ص ٣٣٠-٣٣١.

التسهيلات، حتى إنه أرسل كثيرًا منهم إلى المكان الذي يرغبون فيه دون أن يأخذ منهم جزية، كما أعطى غير المسلمين الحقوق التي مُنحت لهم منذ عَهْد سيدنا عُمَر ﷺ، وسمَح لجزء من اليهود الذين تعرّضوا للنفي قديمًا أن يعودوا إلى القُدْس مُجدّدًا.

تحوّلت القُدْس بعد وفاة صلاح الدين الأيوبيّ عام (١١٩٣م) إلى ساحة كبيرة للفوضى وعدم الاستقرار، وخضَعت من جديد لسيطرة الغَرْب بمقتضى اتفاقية عُقدت عام ١٢٢٩م، ولكن هذا الوضع لم يستمرّ طويلًا؛ إذ عادت القُدْس إلى حُكْم المسلمين بعد ذلك بخمس عشرة سنة، واستعاد المماليك -وخاصة بجهود السلطان "بيبرس (*Baybars*)"- فِلِسْطين قِطْعة تِلْو الأُخرى من أيدي الصليبيّين، وأصبحت ستة مناطق منها، وهي غزة وليد وقاقون والقُدْس والخليل ونابلُس تَتْبع دمشق.

تجلّت سماحة الإسلام بشكل جيد في حُكْم المماليك، فقد سُمِح للمسيحيين بالدخول إلى المنطقة رَغْم أن الغلَبة كانت للمسلمين في فِلِسْطين في ذلك العَصْر، وأُعطي حقُّ اللجوء لليهود الذين فرّوا من أوربا -وخاصة إسبانيا- وهاجروا إلى فِلِسْطين، ومن مزايا هذا العَصْر كذلك انتشار وتطوُّر نظام الأوقاف الذي ظهر في عصر العباسيّين، وأُقيم في القُدْس على وجه الخصوص عددٌ كبير من الأوقاف لخِدْمة أهداف دينية واجتماعية؛ وذلك من خلال موظفي الدَّوْلة.

دخلت فِلِسْطين تحت الحُكْم العثمانيّ في عَهْد السلطان سليم بعد معركة "مَرْج دَابِق (*Mercidâbık*)" عام ١٥١٦م، واستُكمل فتح المنطقة وما حولها في عَهْد السلطان سليمان القانونيّ، وجرَت كثير من أعمال الإعمار، وخضَعت فِلِسْطين والمنطقة المُحيطة بها لحُكْم العثمانيّين الذي تركوا فيها بصمات لا تخطئها العين، واستمرّ هذا الأمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى رَغْم وجود تحدّيات داخلية وخارجية أدّتْ أحيانًا إلى تغيُّرات إدارية.

انقسمت فِلِسْطين في العَهْد العثمانيّ إلى مُقاطعات، هي القُدْس وغزة ونابلُس والصفد، وكلها تتبع ولاية الشام إداريًّا، وخارج هذه المُقاطعات إماراتٌ تَتْبع مركز الولاية مُباشرةً.

تمرّد الأُمَراء الذين كانوا في عَكّا، واستولَوْا على الحُكْم عندما ضَعُفت قَبْضة الإدارة المركزية، وأشهر هؤلاء "مان أوغلو فخر الدين (*Ma'noğlu Fahreddin*)" (ت.١٦٣٥م)، وزاهر العُمَر (ت.١٧٨٢م).

لم يكن "نابليون بونابرت (*Napolyon Bonapart*)" قادرًا على السيطرة على فِلِسْطين بعد أن احتلّ مصر عام ١٧٩٩م، رَغْم أنه جهَّز حَمْلة لهذا الغرض؛ لأن حاكم عكّا أحمد باشا الجزار نجَح في الدفاع عنها.

بعد أن سيطر إبراهيم باشا بن محمد علي باشا على منطقة فِلِسْطين عام ١٨٣٢م، عادت مرّة أُخرى تحت الحُكْم العثمانيّ عام ١٨٤٠م، وأصبحت القُدْس ولاية تخضع للإدارة المركزية في الدولة العثمانيّة عام ١٨٨٧م؛ ثمّ بعد عام دخلت نابلُس وعكّا داخل حدود هذه الولاية عندما تأسّست ولاية بيروت؛ وبذلك انقسمت فِلِسْطين إلى شطرين: الجزء الشمالي صار ولاية تتبع بيروت، أما الجزء الجنوبي للأرض المُقَدسة فتُرِك أمره لإدارة القُدْس، ومن المدن المُهمّة التي تخضع لولاية القُدْس وَفْق هذا التقسيم: القُدْس ويافا وغزّة وخليل الرحمن؛ ويتبع لواء عكّا مدن عكّا وحَيْفا والصفَد والناصِرة وطبَرية؛ ويتبع لواء نابلُس مدن نابلُس وبني صَعْب وجمّاعين وجنين، وظلّت فِلِسْطين تابعة للدولة العثمانيّة حتى في عَهْد الانتداب البريطانيّ بعد الاعتراف بحدود نهر الأردن ودخول فِلِسْطين العثمانيّة في هذا التقسيم.(٧)

(٧) قارامان، مصدر سابق، ص ٩٢.

٢- البنية الإدارية والسكانية لفِلِسْطين

١- التقسيم الإداري لفِلِسْطين

تُركت البُنْية الإدارية القديمة في منطقتي سوريا وفِلِسْطين على حالها تقريبًا بعد أن دخلتا تحت الحُكْم العثمانيّ، وانقسمت منطقة فِلِسْطين إلى ثلاثة أقسام تتبع ولاية الشام، هي القُدْس - غزة، نابلُس - الصفَد، صالت - عجلون، وعُهد بحُكْم القُدْس في المرحلة الأولى لـ"أورانوس أوغلو (*Evrenosoğlu*)"، وحُكْم الصفَد لـ"منتصر أوغلو (*Muntasıroğlu*)"، وحُوِّل حُكْم القُدْس وغزة والصفَد في ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٥١٧ إلى "الجانبردي الغزالي" نائب المماليك السابق في الشام، ثُمّ ما لَبِث أن أُلقي القَبْض عليه أثناء حُكْم السلطان سليمان القانونيّ، وأُعدِم بتهمة السعي لإعادة تأسيس حُكْم المماليك القديم في سوريا ومصر، وترتّب على هذا تغيير في البنْية الإدارية لهذه المنطقة؛ فعُهِد بإدارة ولاية الشام لعيَّاش باشا أمير أمراء الأناضول، وانفصلت مُدن الصفَد وغزة والقُدْس عن ولاية الشام، وصارت كل منها ولاية مُستقلة تابعة لولاية الشام، وعُيِّن "قَرَه حسن بك (*Kara Hasan Bey*)" حاكمًا على القُدْس.

وأُسّستْ ولاية جديدة تحت اسم الصفَد - صيدا - بيروت عام ١٦١٤م، ودخلت ضِمْن حدود هذه الولاية مُقاطعات نابلُس وجبل عجلون وتَدْمُر وكَرْك شَوْبَكْ الواقعة داخل حدود ولاية الشام، وأصبحت أراضي فِلِسْطين مُكوَّنة من ولايتين مُستقلتين، وقام الباشاوات الذين يُديرون ولاية الشام في كثير من الأحيان بتولي الأمور -إضافة إلى عملهم- في مقاطعتين أو ثلاث، مثل نابلُس وجبل عجلون اللتين تتبعان ولاية الصفد - صيدا -

بيروت مع القُدْس الشريف ولَجُّون وغزة التابعة للولاية، وأُعلنت مناطق القُدْس الشريف ونابلُس وغزّة على وجه الخصوص من مُلحقات ولاية الشام، وتغيّر اسم ولاية "الصفد - صيدا - بيروت" اعتبارًا من أواسط القرن السابع عشر، لتصبح ولاية "صيدا".

لم تتغيّر البنية الإدارية لمنطقة فِلِسْطين كثيرًا في القرن التاسع عشر، وآلت لحُكْم القوالليين ما بين عامي ١٨٣١-١٨٤٠م، ثمّ انتقلت إلى حُكْم الدَّوْلة العثمانيّة من جديد عام ١٨٤٠م؛ لتخضع في حُكْمها بعد ذلك لولاية صيدا، ودخلت مُقاطعات القُدْس ونابلُس وعكّا في حدود ولاية سوريا عام ١٨٦٥، وارتبطت القُدْس من الناحية الإدارية أثناء حرب القرم بإسطنبول بوصفها أحد الأماكن المُقَدسة، ولكن هذا الأمر لم يستمرّ طويلًا فسُرْعان ما عادت القُدْس مرّةً أخرى ضِمْن الحدود الإدارية لولاية سوريا، وفي عام ١٨٨٧م أُقيمت ولاية بيروت، وانضمّ إلى هذه الولاية الجديدة من الناحية الإدارية نابلُس وعكّا، في الوقت الذي انضمّت فيه القُدْس من جديد إلى إسطنبول للحيلولة دون تدخل الدُّوَل الغربية، وسُمّيت "حامية القُدْس"، واستمرّت هذه البنية الإدارية على حالها إلى أن خرجت المنطقة بأسرها من سيطرة الحُكْم العثمانيّ،(٨) وفي عام ١٨٦٠م أُسّست أول بلدية في فِلِسْطين، وكان تأسيس أول بلدية في منطقة القُدْس سببًا في تحويلها إلى مركز إداريّ مُهمّ نتيجة للتدابير الإدارية هناك.

وأُقيمت في نابلُس بعد ذلك ثاني بلدية في فِلِسْطين عام ١٨٦٨م، وامتدّت حدود نابلُس لتشمل منطقتي جبل نابلُس وبلقا، وفي عام ١٨٧٢م أُقيمت بلدية في يافا التي تحوّلت إلى واحدة من أهمّ المدن الساحلية في فِلِسْطين في تلك الفترة، وقد تأسّست البلدية في يافا عام ١٨٧٢م،

(٨) إشيق إشيل بوستانجي، **فِلِسْطين في القرن ١٩** (وضعها الإداري والاقتصادي والاجتماعي، رسالة دكتوراه، جامعة فرات، ٢٠٠٦م)، ص ١٢٤-١٢٥.

أمـا البلديـات فـي الصفد وطبَرية والناصـرة وحيفا التي حلّـت محلّ عكّا على الساحل، فقد أُقيمت بعد صدور قانون بلديات الولايات عام ١٨٧٧م.

حـدّد قانون بلديـات الولايات الذي أُقرّ عـام ١٨٧٧م مَهامّ البلديات، وهذه المَهامّ هي الإشراف على أعمال البناء، وفَتْح الطُّرُق وبناء الأَرْصفة والمصارف، وهَدْم المباني الخَطيرة، وإنشاء قنوات المياة العامة والخاصة وصِيانتهـا، ونَزْع المُلكيـة الخاصة لأجل المصلحة العامـة، وإدارة أملاك البلديـة وإيراداتهـا، وإضاءة المدينة، وتنفيذ أعمـال النظافة، وإحصاء عدد السـكان، وإقامة أماكن للأسـواق، وضَبْط الأوزان، ووَضْـع أسعار الخبز، والإشـراف والمراقبـة واتخـاذ التدابيـر اللازمـة للمُحافظة على السـلامة والصالـح العـام، وتكويـن وحـدة للإطفاء، وتقديـم الخدْمـات مثل فتح المُستشفيات ومدارس الإصلاح والفنون.

حفرية للقدس

كان عبد الرحمن أفندي الذي يُنسب إلى الداوووديين -إحدى العائلات التي عُرفت بعِلْمها- أول رئيس لبلدية القُدْس، وبعد عام حلّ محلّه يوسف ضياء وهو من عائلة الخالدية، قام يوسف ضياء الخالدي خلال رئاسته للبلدية -وقد استمرت تسع سنوات- ببعض المشاريع المُهمّة لتطوير المدينة، مثل تعبيد طُرُق المدينة، ونَقْل المياه من "حوض السلطان" إلى المدينة، وفَتْح طريق بين القُدْس ويافا، ثم عُيّن عُمَر حسيني خَلَفًا له بعد أن دخل نائبًا عن القُدْس في أول برلمان عثمانيّ.

أثّرت النسبة المرتفعة لعدد السكان المسلمين في القُدْس على انتخابات البلدية في أواخر القرن التاسع عشر؛ فقد حصل المسلمون على خمسة مقاعد في مجلس البلدية، بينما حصل اليهود والمسيحيون على مقعد واحد، وكذلك حصل المسلمون في آخر مجلس للبلدية على ستة مقاعد، بينما حصل اليهود والمسيحيون على مقعدين لكل منهما.[٩]

ب- الخريطة السكانية في فِلِسْطين

لم يتجاوز عدد السكان اليهود في القُدْس عام ١٤٨٨ سبعين عائلة، وكان عدد اليهود في القُدْس من الذكور ممن هم في سن البلوغ ١١٥نسمة وفْقًا لمراكز الإحصاء الرسمية في أواخر القرن السادس عشر، أما العدد الإجمالي فبلغ حوالي ٥٠٠-٦٠٠ نسمة،[١٠] وارتفع هذا العدد مع سماح الدَّوْلة العثمانيّة لليهود الذين فرّوا من المذبحة في إسبانيا عام ١٤٩٢م بالقدوم إلى فِلِسْطين والاستقرار فيها.

يرى بعض الباحثين أن العدد التقريبي لسكان فِلِسْطين في القرن السادس عشر قد بلغ ٢٠٠٠٠٠ نسمة مُعظمهم ممن يقطُنون القُرى، ويتراوح عدد السكان في مدن غزّة والصفَد والقُدْس -وهي أكبر ثلاث مدن آنذاك- بين ٥٠٠٠-٦٠٠٠ نسمة، ورَغْم ارتفاع عدد اليهود

(٩) بوستانجي، مصدر سابق، ص ٦٩-٧٠.

(١٠) فيظاء بتول كوسه، **القُدْس تحت الحُكْم العثمانيّ**، رسالة ماجستير، جامعة أتاتورك، أرضروم ٢٠٠٣، ص ٩٥.

في فِلِسْطين في القرن السادس عشر مع توافد اليهود من إسبانيا وزيادة النشاط التجاري الإقليمي، إلا أن هذا العدد شَهِد تراجعًا ملحوظًا في القرن ذاته، وكذلك القرن السابع عشر.

وقد تراجعت أعداد اليهود القادمين من إسبانيا، وزادت أعداد السكان مع نشاط التجارة الإقليمية في القَرْن نفسه، وكذلك في القرن السابع عشر.(١١)

ولم تُعرف أعداد السكان في بدايات القرن التاسع عشر لعدم إجراء إحصاء دقيق للسكان في تلك الفترة، وكانت الأرقام التي يُعطيها الرّحالة الذين زاروا المكان في ذلك الوقت أرقامًا تخمينية؛ فعلى سبيل المثال ذكر "ستزَن (*Seetzen*)" الذي زار القُدْس عام ١٨٠٦ أن عدد سكان القُدْس الإجمالي هو ٨٧٥٠ نسمة، منهم ٤٠٠٠ مسلم؛ أما "روبنسون (*Robinson*)" الذي جاء إلى القُدْس عام ١٨٣٨ فذكر رقمًا يفوق الأرقام التي أعلن عنها رحّالة الغرب الآخرون؛ إذ ذكَر أن عدد سكان القُدْس يتراوح بين ١٥٠٠٠-٣٠٠٠٠ مُعظمهم من المسلمين؛ أما "طوبلر (*Tobler*)" الذي زار المنطقة عام ١٨٤٠م فذكر أن عدد سكان القُدْس الإجمالي ١٠٠٠٠ نسمة تقريبًا، منهم ٤٥٠٠ مسلم، و٣٥٥٨ مسيحيًّا، والبقية من اليهود؛ وكذلك ذكر *Schultz* الذي قدم إلى القُدْس بصفته قُنْصلًا، أما "ف. بريمر (*F. Bremmer*)" فأعلن عام ١٨٥٩م أن عدد سكان القُدْس الإجمالي هو ٢٣٣٥٤ نسمة، منهم ١٢٢٨٦ مسلمًا، و٧٤٨٨ مسيحيًّا، و٣٥٨٠ يهوديًّا، ولكن هذه المعلومات لا تخلو من المبالغة عند الباحثين الغربيين؛ فلم يُوضّح أحد منهم ما إذا كانت هذه الأعداد التخمينية تخصّ مركز المنطقة فقط، أم أنها خاصة بالأعداد الإجمالية للمنطقة كلها.(١٢)

(١١) درور زيعوي، القُدْس، دار نشر يورت، وَقْف التاريخ، إسطنبول ٢٠٠٠م، ص ٣.

(١٢) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٣٦.

وبحلول عام ١٨٩٣م أُحصيت أعداد سكان القُدْس كلها حسب طوائفهم على النحو التالي:

اسم الطائفة	عدد الأشخاص
الإسلام	٢١٣٣١٠
الروم	١٦٧٠٦
اليهود	٨١١٠
لاتيني	٦٨٤٩
الأرمن	٩٣٩
البروتستانت	٦٥٤
البلغار	٤٢٢
السريانيين	١٠
العدد الإجمالي	**٢٤٧٠٠٠**

وارتفع عدد سكان القُدْس الإجمالي ومُقاطعاتها خلال فترة عشر سنوات تقريبًا من ٢٣٤٧٧٠ إلى ٢٧٤٠٠٠، بَيْد أن وثائق السكان العثمانيّة لم تُشر إلى زيادة في أعداد اليهود بعد عام ١٨٨٢م، رَغْم هجرة اليهود التي أخذت في التزايد، واحتياط الدَّوْلة العثمانيّة في أخذ التدابير اللازمة في هذا الخصوص، ويرجع السبب في هذا إلى عمليات الاستيطان غير المُرّخص بها، وقد أعلن "*Mc Carthy*" أن عدد السكان الإجمالي في القُدْس هو ٢٧٥١١٥ نسمة، وصل عدد اليهود منهم عام ١٨٩٢-١٨٩٣م إلى ١١٠٠١ إجمالًا، وقد لوحظ وجود فرق قُدِّرَ بـ٢٨١١٥ من الأعداد المدونة في الوثائق الرسمية للدولة العثمانيّة عن الفترة نفسها.[١٣]

(١٣) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٤٠.

oberkanal.com

يُوضّح الجدول التالي عدد السكان والمنازل في يافا[١٤] عام ١٩١٧م:

مدينة يافا	عدد المنازل	عدد النساء	عدد الذكور	المجموع
الإسلام	٣٦٢٢	٩٥٦١	٩٩٧٤	١٩٣٥٣
الروم	٦٧٨	٢٠٥٣	٢١٩٩	٤٢٥٢
الأرمن	٢٢	٥٧	٤٨	١٠٥
اللاتينيين	١٠٢	٣٢٨	٣٣٨	٦٦٦
الكاثوليك	١٠٤	٢٥٨	٢٧٤	٥٣٢
المارونيون	٥٥	٩٤	١٢٠	٢١٤
البروتستانت	٢٠	٤٤	٤٨	٩٢
السريانيون	١	١١	٨	١٩
الأقباط غير المسلمين	٤	٩	٩	١٨
اليهود	١٣٤٣	١٩٣٥	١٧٦٨	٣٧٠٣

وقد انخفضت أعداد اليهود في فِلِسْطين من ٨٥٠٠٠ نسمة عام ١٩١٤؛ لتصل إلى ٦٥٠٠٠ نسمة أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي عام ١٩٢٢ بلغ عدد السكان في فِلِسْطين ٦٦٨٢٥٨ نسمة، أما اليهود فبلغت أعدادهم ٨٣٧٩٠ نسمة.[١٥]

(١٤) BOA. DH. UMVM, ١٤٥/٤٩

(شرح: أشيرَ إلى "**وثائق الأرشيف العثمانيّ التابعة لرئاسة الوزراء**" بـ"BOA" في الهوامش والمصادر، انظر "المصادر" لمزيد المعلومات).

(١٥) رياض ميشيل، **التطور السكاني في الأردن وإسرائيل منذ النشأة وحتى اليوم وتحليله البنيوي** (رسالة ماجستير)، جامعة إسطنبول، إسطنبول، ١٩٩٧ م، ص ٥٣-٥٥، حسن صالح، **سكان فِلِسْطين**، عمان: دار الشروق ١٩٨٥م، ص ٢٤٨ ؛ نقلًا عن رياض ميشيل؛ التحليل البنائي والتطور السكاني في الأردن وإسرائيل منذ قيامهما حتى يومنا الحاضر، رسالة ماجستير بجامعة إسطنبول.

obeikandl.com

وينبغي النظر بحيطة إلى الأرقام المُصرّح بها؛ لأن الدَّوْلة العثمانيّة ظلّت تسجل عدد غير المسلمين من رعاياها حتى عام ١٨٨٠م فقط، وأهملت تسجيل غير المسلمين من رعايا الدُّوَل الأجنبية، فجاءت بعض الأرقام مُبالغًا فيها بقَصْد إظهار زيادة أعداد اليهود.

obeikandl.com

٣- إدارة فِلِسْطين العِرْقية والدينية

أ- الطوائف العِرْقية والدينية في فِلِسْطين

يُشَبَّه المجتمع الفِلِسْطينيّ في تركيبه بالفُسَيْفُساء، وتُؤثّر العقائد الدينية والفروق المذهبية بشكل خاص على البنية السكانية في فِلِسْطين أيضًا؛ لهذا كان المصدر الرئيس للفوضى وعدم الاستقرار في المنطقة هو هذا البناء الفُسَيْفُسائي الذي تنوّع من الأديان والأعراق المختلفة؛ وتُقدِّم وثيقة لا تاريخ لها (يُرجّح أنها تعود إلى ما بين ١٩١٥-١٩٢٠م) من سِجّلات الأرشيف العثمانيّ معلومات عامة عن البناء الديني والعِرْقي للأقوام الذين عاشوا في القُدْس الشريف، وفيما يلي عَرْض مُبَسّط لمحتوى هذه الوثيقة:

اليهود: رَغْم معرفتنا بأن اليهود قد أخذوا عقائدهم عن سيدنا موسى عليه السلام، إلا أن كتاب التلمود وكتب العقائد والتعاليم الأخرى كان لها تأثير قويّ في عقائدهم، لم يكن عدد اليهود يتجاوز مائتين أو ثلاثمائة شخص فقط قبل تسعة قرون على أراضي فِلِسْطين التي طُرِدوا منها منذ عَهْد "أدريانوس"، وأخذت أعدادهم تتزايد تدريجيًّا بعد هذا التاريخ لتصل اليوم إلى خمسين ألفًا في القُدْس وحدها، وتُقدَّر أعدادهم في فِلِسْطين كلها على سبيل التخمين بما يَقْرُب من مائة ألف يهوديّ؛ فقد نزح اليهود إلى فِلِسْطين من كافة أنحاء العالم، وقَوِيت العلاقة بينهم بناء على الناحية العِرْقية، ولكنهم انقسموا فيما بينهم إلى طُرُق وأجناس مختلفة؛ فاليهود ينحدرون من نسلين كبيرين، النسل الأول ويطلق عليهم يهود "الأشكيناز" وهم القادمون من ألمانيا وروسيا وبولونيا ورومانيا، ويطلق على النسل الآخر يهود "السفرديم" وهم اليهود الذين طُرِدوا

مـن أسـبانيا، وكانوا قـد نزَحوا مـن البرتغـال ومُرّاكش والجزائـر واليمن وإيران وبُخارى، ومن المنتسـبين إلى القسم الثاني طُرُق دينية يطلق عليها "باروشـيم"، و"حسديم"، وهي منسـوبة إلى الطُّرُق الفلسـفية الإسرائيلية، ويعيش أفراد هذه الطريقة في القُدْس -وهم قليلو العدد- من مُسـاعدات جمعية الإسـرائيليات "إليانز" للإغاثـة، ويقضون أوقاتهم في العبادة، يتّبـع اليهودُ عددًا كبيرًا من الطُّرُق الدينية، لكل منها مَعْبد ومدرسـة خاصة بها، وهـم يخضعـون لإدارة حاخـام واحد من "السـفرديم"؛ لأنهـم يجتمعون على مذهب أساسيّ واحد.

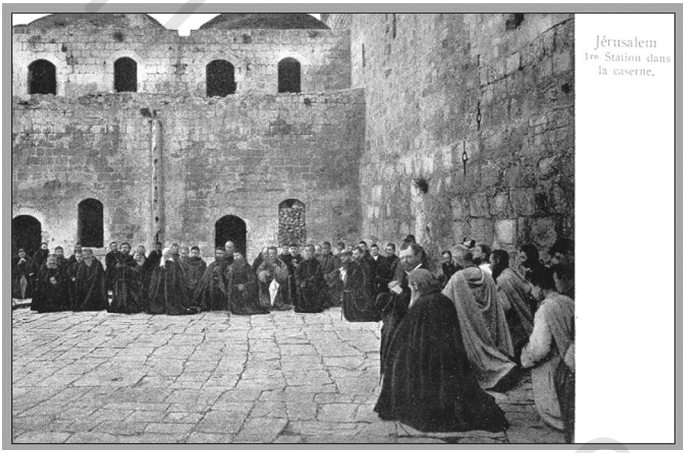

يهود القُدْس في الطقوس الدينية

حُدِّد لليهود نوع مختلف من الملابس حتى يُعفَوا من القواعد التي ينبغي على المسلمين اتباعها، وحتى يتحاكموا إلى القوانين الخاصة بأديانهم.

الـروم الأرثوذكس: حَظِيت كنيسـة الروم بمكانة أفضل من كل كنائس المسـيحيين في الشـرق؛ لأنها مؤسسـة دينية بُنيت على الأُسس العقائدية لحواريّي سـيدنا عيسـى عليه السلام، وإن كان هذا التفوُّق قد قلّ عندما اسـتولى الصليبيون على فِلِسْـطين، إلا أنها اسـتردّت مكانتها مـن جديد منذ قرنين

أو ثلاثة، وتختلف هذه الكنيسة عن الكنيسة الرومانية بشكل أساسيّ في عدم الاعتراف برئاسة الكنيسة البابوية، وعدم التوافق معها في نقطة أو اثنتين من أساسيّات العقيدة، يبلغ عدد سكان الروم الأرثوذكس في القُدْس حوالي ثلاثين ألف نسمة، وكان للروم الأرثوذكس في القُدْس والمناطق المحيطة مجالس باسم "سيوند (*Siyond*)" مُكوّنة من بَطارِكة ورُهْبان مُعينين بمرسوم سلطانيّ.

الأرمن: يختلف الأرمن في عقائدهم بشكل كبير عن الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الرومانية؛ لأنهم يتبعون طريقة البابا "جريجوريوس المنوَّر"، ويرجع تاريخ الكنائس في القُدْس إلى خمس عشرة قرنًا تقريبًا، ويبلغ عدد السكان الإجمالي فيها ألفًا وخمسمائة نسمة داخل اللواء في رأي الباحثين المحدثين، وتُدار هذه الكنائس من هيئة البطارِكة والرهبان، وتُختار هذه الهيئة بمرسوم سلطانيّ.

السريانيّون: يأتي مذهب السريانيّين في المرتبة الثانية حاليًّا بسبب التغييرات التي أُجريت في الكنائس، رَغْم أنه يُعد أفضل مذاهب المسيحيّين الأخرى في المنطقة، ويتبع السريانيّون عقائد الكنائس الأرمينية، ويُعرف السريانيّون كذلك باسم "السريانيّون اليعقوبيون"؛ لاقتدائهم بالبابا "يعقوب النُّصيْبِي"، ويبلغ عدد السكان في هذه المنطقة ٣٢٧ نسمة تقريبًا، ولهم أساقفة في القُدْس يُعيَّنون من قِبَل البَطارِكة في "ماردين"، وتعترف بهم الدَّوْلة العثمانيّة.

الأقباط: كان فشلُ الأقباط في اجتذاب روم الكنيسة المصرية القديمة إليهم سببًا في مخالفتهم لبعض أفكار هذه الكنيسة، وانفصلوا عنها وأصبح لهم مذهب مُستقلّ حاليًّا، ولهذه الطائفة جماعات في القُدْس يبلغ عددها مائة وخمسة وعشرين يترأسهم أساقفة نزحوا قديمًا من مصر.

الأحباش: أخذ الأحباش أُسس مذاهبهم عن الأقباط، حتى إن كِبار الرُّهبان في الحبشة كان يُعيَّنون من قِبل البَطْرِيَرْك القِبْطيّ في مصر باسم "قبطيّ الجنس"، ودَأَب الأحباش منذ القِدَم على تردُّدهم الجماعيّ إلى القُدْس ذهابًا وإيابًا، لكن ظلّت جماعة منهم عددها قريب من المائة مُقيمة هناك بشكل دائم، ولهم كنائس وأَدْيرة خاصة بهم.

الروس: يمتلك الروس في القُدْس عددًا كبيرًا من الكنائس والمُؤسسات المستقلة عن الروم، رَغْم أنهم يتبعون الكنيسة الرومانية من الناحية المذهبية، وقد سعى الرُّهْبان الروس في القُدْس إلى ضمّ السكان من المذهب الأرثوذكسي الرومانيّ إلى الكنيسة الروسية.

البروتستانت: إن كان المذهب البروتستانتي قد انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية، وأسّس لوثر المذهب البروتستانتيّ، إلا أن هذا المذهب انقسم بعد ذلك إلى عدد كبير من الطُّرُق الدينية، وقد خدم هذا المذهبَ عددٌ من المبشرين الألمان والإنجليز والأمريكان الذين سعَوْا من أجل انتشاره في القُدْس، وعملوا منذ أواسط القرن الماضي على إقامة كثير من المؤسسات التعليمية والخيرية في فِلِسْطين، ورَغْم أن هؤلاء المبشرين قد تبنّوا دعوة اليهود إلى البروتستانتية، إلا أن عدد اليهود الذين تحوّلوا إلى هذا المذهب كان قليلًا جدًّا؛ لهذا بدؤوا في إنشاء عدد من المدارس والمؤسسات الأخرى لتحويل أتباع المذاهب المسيحية إلى المذهب البروتستانتي، وتُعد الكنيسة العليا والكنائس الإنجيلية وفرسان المعبد أكثر الطُّرُق الدينية البروتستانتية انتشارًا في هذه المناطق، إضافة إلى هذا هناك طريقتان أخريان تأتيان في المرتبة الثانية لرعايا أجانب يطلق عليهما اسم "إدفنست (*Edvenist*)" و"كِفجر (*Kveger*)"، وترتبط كل طريقة منهما ببعض العادات والتقاليد التي لا تَمُتُّ إلى الدين بصلة، وقد اعترفت الحكومة رسميًّا بهاتين الطريقتين.

اللاتينيون: يتبنى المذهب اللاتينيّ عقيدة الكنيسة الرومانية، وللاتينيين وجود في القُدْس منذ عَهْد الصليبيين، وهم يخضعون لإدارة رجال الدين من رعايا الدُّوَل الأجنبية، وقد استمرّوا في أداء وظيفتهم الدينية في الأماكن الكاثوليكية التي يقصدها الناس للزيارة، ويُقيم هؤلاء في القُدْس، ولديهم رجال دين يعملون تحت إمرتهم ويحملون لقب بَطْريرك، ورَغْم أن الدَّوْلة العثمانيّة لم تعترف بالبَطْرِيَرْكية إلا أن البَطْرِيَرْكية كان مُعترفًا بها بشكل شبه رسمي؛ لأن الدَّوْلة العثمانيّة كانت تحكم أتباع المذهب اللاتيني الذين هم من رعاياها.(١٦)

كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون في أحياء مختلفة من القُدْس، يحافظ كل منهم على حياته الدينية والاجتماعية بشكل مختلف عن الآخر.

أُقيم حيّ المسلمين في شمال شرق المدينة القديمة، وكان يحمل صفة الحيّ الأكبر، ثم توسّع هذا الحيّ وأصبح على امتداد الحرم الشريف، كما خضعت الطُّرُق المؤدية إليه من الشمال والغرب للمراقبة، وأخذت أعداد السكان فى التزايد عند أقرب الأبواب المؤدية للمسجد، ومراكز التعليم الديني، وأهمّ المباني العامة على امتداد حيطان الحرم الشريف من الشمال والغرب، وبالمقابل كلما ابتعدْتَ عن هذه الأماكن كانت أعداد السكان تتناقص.

يحيط الحيّ المسيحيّ بأحد أجزاء المنطقة الشمالية الغربية للمدينة، وقد قام المسيحيون في المنطقة المحيطة بدير مَرْقد عيسى عليه السلام -وهو من الأماكن المُقَدسة عند المسيحيين- بشراء منازل أو إقامتها في هذا المكان؛ فعندما نُقِلَ دير "فرانسيسكان (*Fransisken*)" في أواسط القرن السادس

(١٦) BOA, DH, EUM. ٤. Şb. ٢٢/٤٠

عشر من "جبل صهيون" إلى هذه المنطقة، تكوّن على إِثر ذلك مركز روحانيّ آخر جمَع المسيحيين حوله، وكان للمسيحيين في هذا الحيّ من المدينة القديمة عدد كبير من المؤسسات الدينية والأماكن المُقَدسة قديمها وحديثها، وضمّ كذلك ١٥ كنيسة لليونانيين، و١٨ ديرًا، وعددًا كبيرًا من الخانات التي كانت تقوم على استضافة الحجاج المحليّين، ولم يكن للسوريين الأرثوذوكس سوى كنيسة واحدة قديمة وبجانبها دير صغير.

منزل البَطْرِيَرْكية اللاتينية

(جامعة إسطنبول، مكتبة الآثار النادرة، ٩٠٥٠٤-٢٣)

ورَغْم ضعف الإمكانيات المادية للأقباط؛ لأنهم كانوا من أكثر الطوائف المسيحية فَقْرًا، إلا أنهم كانوا يملكون ديرًا باسم "سانت جورج (*Saint-Georges*)"، وكان لهم خاناتهم الخاصة، ورَغْم ذلك كانت هناك مباني البَطْرِيَرْكية اللاتينية الواسعة في الطرف الشمالي لباب يافا بداية من عام ١٨٦٨م، واستقرّت في بدايات عام ١٨٥٠م في الحيّ المسيحيّ اثنان من الطُّرُق الدينية النسائية الفرنسية، بالإضافة إلى الراهبتيْن "نوتردام

دي سيون (*Notre Dame de Sion*)" و"سانت جوزيف (*Saint-Joseph*)"، وقاموا بافتتاح الأديرة والمدارس، وقام الإنجيلكان واللوثريون الألمانيّون من البروتستانت بإقامة مؤسسات في محيط أُسقُفياتهما المشتركة، وأقاموا آثارًا دينية ومِعْمارية مُقابل أنشطة الكاثوليك والأرثوذكس.

يقع الحيّ الأرمينيّ في الطرف الجنوبيّ الغربيّ من المدينة فوق "جبل صهيون"، ويُعدّ دير وكنيسة "عزيز يعقوب" من أهمّ الأماكن في هذا الحيّ، ويقعان في ساحة واسعة تُغلق أبوابها ليلًا، ومُحاطة بحائط أقامه بَطْريرك الأراضي المُقَدسة وقبرص الأرمينية.

وهناك حيّ المغاربة بين الحيّ اليهودي الواقع إلى الجنوب الشرقيّ من المدينة القديمة وحائط المَبْكى، وكان اليهود يقيمون في الأحياء الجنوبية مثل القُدْس الشريف والمسلة والريشة؛ لأنهم يفضلون الإقامة بالقرب من حائط المَبْكى، وترجع إقامتهم في هذه المنطقة إلى القرن الثالث عشر، ويُحيط الحرَم الشريف والأحياء المسلمة بهذه الساحة الضيقة، وهي أقرب إلى حائط المَبْكى من الشمال والشرق، ويُحيط بها من الغرب والشمال الغربيّ أحياء الأرمن والأحياء المسيحية.[١٧]

ولم يكن الفصل بين هذه الأحياء فصلًا رسميًّا يخضع لقواعد وضوابط صارمة، بل كان نوعًا من الانقسام المشروع تكوّن تلقائيًّا واعترف به الجميع؛ فقد كان لكل ذي ديانة الحرية في اختيار المكان الذي يريده والإقامة فيه، وعلى سبيل المثال كان هناك عشرة معابد يهودية داخل الحيّ المسلم في المدينة القديمة، ومُؤسسات تعليمية ومطبعة عِبْرية في نهاية القرن التاسع عشر.

(١٧) كُوسَه، مصدر سابق، ص ١٠٣-١٠٤.

حدَث مثل ذلك تمامًا في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، فقد كانت هناك عائلات مُسلمة في الحيّ المسيحيّ، وخاصة في شارع داود، وبين كنيسة القيامة وموريستان، وأقيمت مآذن لمسجدين بقيا من القرن الخامس عشر بالقُرْب من مقام لسيدنا عيسى عليه السلام.

وأُسندت مسألة حماية مقام سيدنا عيسى عليه السلام من الخارج إلى المسلمين منذ فَتْح صلاح الدين الأيوبيّ للمدينة عام ١١٨٧م، وسُلِّمت مفاتيحه لعائلتين مُسلمتين في المدينة، وفي الوقت الذي قَبِل فيه المسيحيون بوجود المسلمين، كانوا يتصدّون في المقابل لأيّ محاولة من اليهود للدخول بينهم، وكان اليهود يتهرّبون كذلك من الذهاب إلى هذه المنطقة، وخاصة تلك المجاورة لكنيسة القيامة.

لَعِبت عوامل مختلفة -وخاصة الهجرات القادمة من أوربا- دورًا مهمًّا في تطوير المدينة القديمة في القرن التاسع عشر، كما فتحت الطريق أمام زيادة كبيرةٍ في عدد سكان المنطقة، وبدأ السكن يتوسّع خارج السُّوْر اعتبارًا من خمسينيات القرن التاسع عشر بعد أن كان مُنحصرًا داخله في القُدْس قبل ذلك.

قام "السيد موسى مونتيفيوري (*Sir Moses Montefiero*)"اليهودي البريطاني، و"جوده تورور (*Judah Touro*)" اليهودي الثري من "نيو أورلينز (*New Orleans*)" بتقديم تبرُّعات لإقامة أول حيّ استيطانيّ لليهود المحليّين خارج الأسوار، واستصدرا قرارًا خاصًّا من السلطان العثمانيّ عام ١٨٥٥م لشراء أرض من الممتلكات الشخصية عند طرَف جبل صهيون، بَيْد أن أعداد اليهود الراغبين في هذا المكان ظلّت قليلة جدًّا بسبب عدم رغبتهم في الابتعاد عن حائط المَبْكى والمعابد والمراكز التعليمية.

وأُسِسَ عددٌ كبير من الأحياء اليهودية خارج أسوار القُدْس اعتبارًا من عام ١٨٦٠م، كان أولها "ميشكنوت شاعنيم (*Mişkenot Şaanim*)"،

وفيما يلي عرض للمباني والإنشاءات التي أقيمت لليهود حتى عام ١٨٨١م:

في عام ١٨٦٦م "*Mahaneth İsrael*"، في عام ١٨٦٩م "*Nahalat Şiva*"، في عام ١٨٧٣م "*Beit David*"، في عام ١٨٧٤م *Mea Şearim*، في عام *Beit Yaako* ١٨٨٠، وتقع على أطراف طريق يافا الأحياء المتبقية خارج *Mea Şearim* و *Kiryat Neemanah*، التي تمّ إقامتها على طريق النبي صموئيل، وعند باب الشام.(١٨)

ب- إدارة الفُسَيْفُساء العِرْقية والدينية بالتسامح

شكّلت معاملة المسلمين مع غيرهم من تسامح وعدل وإدارة في القُدْس منذ الأيام الأولى لفتح سيدنا عُمَر ﷺ أجملَ صفحات التاريخ الإسلاميّ.

كان عمرو بن العاص ﷺ الذي كُلِّف بفتح فِلِسْطين وما حولها يعمل على فتح القُدْس أيضًا، وتسلّم المسلمون القُدْس بقيادة عمرو بن العاص ﷺ بعد مُحاصرتها من دون إراقة دماء، وذلك بعدما فقَد شعبُ المدينة والجنود الأملَ في النجاة من الحصار الذي طالت مدته، ولكن الشعب اشترط أن يُوقّع الخليفة سيدنا عُمَر ﷺ شخصيًّا اتفاقية السلام، فأرسل إليه عمرو بن العاص وأخبره الخبر، فقَبِل سيدنا عُمَر ﷺ، ثم جاء الرسل فأعلنوا عن رغبتهم في السلام، وقرأ عليهم سيدنا عُمَر مُعاهدته الشهيرة:

> "الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه محمد ﷺ، وهدانا من الضلالة، وجمعنا بعد الشتات، وألّف قلوبنا، ونصرنا على الأعداء، ومكّننا من البلاد، وجعلنا إخوانًا مُتحابّين، احمدوا الله عباد الله على هذه النعمة.
>
> هذا كتاب عُمَر بن الخطاب لعَهْد وميثاق أُعطي إلى البَطْرِيَرْك المُبجَّل صاحب الكرم، وهو صفرونبوس بطريرك الملّة الملكية في طور الزيتون بمقام القُدْس الشريف، يشمل الرّعايا والقساوسة

(١٨) كوسه، مصدر سابق، ص ١٠٥-١٠٧.

والرهبـان والراهبـات حيـث كانوا وأيـن وُجِـدوا، وأن يكون لهم الأمن، وأن الذميّ إذا حفظ أحكام الذّمة وجب له الأمان والصّون منا نحن المؤمنين ومن يتولى بعدنا.

وكل مـن قـرأ مرسـومنا هذا مـن المؤمنين وخالفـه من الآن إلى يوم الدين، فإنه يكون لعَهْد الله ناكثًا ولرسوله الحبيب باغضًا، (ربيع الأول، السنة الخامسة عشرة للهجرة) ".[١٩]

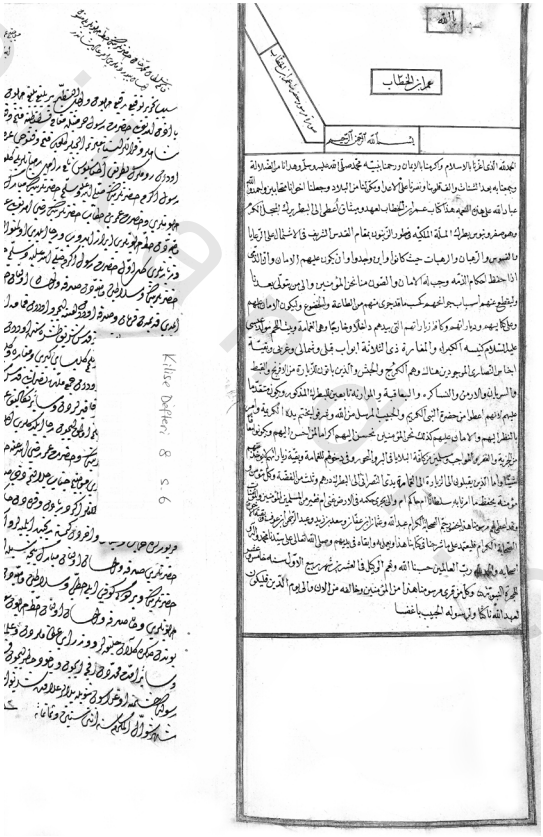

عَهْد سيدنا عُمَر ﷺ

العَهْد الذي أعطاه عُمَر بن الخطاب للبطريرك صفرونبوس

(١٩) BOA, A. DVN. KLS. D. ٠٨

توجّه سيدنا عُمَر بن الخطاب ﷺ بعد هذه الاتفاقية التي وُقِّعت في العام الخامس عشر من الهجرة مُباشرة إلى القُدْس، ودخل كنيسة القيامة هناك، فحان وقت الصلاة، فسأل سيدنا عُمَر ﷺ عن مكان يؤدي فيه الصلاة، فأجابه البَطْرِيَرْك بأنه يُمكنكم إقامة الصلاة في الكنيسة، لكن سيدنا عُمَر ﷺ لم يرض أن يصلي داخل الكنيسة، ثم التفت إلى البَطْرِيَرْك بعد انتهى من صلاته خارج الكنيسة في مكان قريب من الباب، وقال له:

"أما إني لو صليت داخل الكنيسة لوثب المسلمون على المكان وقالوا: هنا صلى عمر".

وبناء على هذا أضيف إلى المعاهدة ألا يجتمع المسلمون في الكنيسة من أجل الصلاة، وألّا يُرفَع الأذان هناك، ثم أراد سيدنا عُمَر ﷺ أن يُريَ البَطْرِيَرْك المكان الذي يريد بناء المسجد فيه؛ فاختار الهضبة التي خاطب الله تعالى سيدنا يعقوب عندها، وعندما بدأ ينظف بيديه الرمال من فوقها، سارع المسلمون ففعلوا مثله، ولم يمرّ وقت طويل حتى أصبح المكان جاهزًا لبناء المسجد، وبعد أن أصدر الخليفة أمره ببناء مسجد في هذا المكان، رسَم الحدود بين الولايات في منطقة الشام وعيّن لها حُكّامًا، ثم عاد إلى المدينة.[٢٠]

وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبيّ عندما حرّر القُدْس من أيدي الصليبيين عام ١١٨٧م بعد جهاد استمرّ زمنًا طويلًا؛ فقد أبدى كل أنواع اللين في المعاملة مع الصليبيين في المدينة، وخاصة الأطفال والنساء ورجال الدين المسيحيّ، وأطلق سراح عدد كبير منهم لينصرفوا حيث أرادوا دون أن يأخذ منهم الفِدْية؛ فكان صلاح الدين الأيوبيّ موضع تقدير وإطراء من المؤرخين الصليبيين أنفسهم.[٢١]

(٢٠) **تاريخ الإسلام منذ الظهور** وحتى اليوم، ج ٢، ج ٤، نشر دار جاغ، إسطنبول، ١٩٨٦م، المجلد الثاني ص ٩٣-٩٤.
(٢١) المرجع السابق، المجلد السادس ص ٣٣١.

واستمرّ تسامح الحُكّام المسلمين الأولين تُجاه غير المسلمين في عَهْد الدَّوْلة العثمانيّة كذلك، فمازالت اللوحة التي وضعها العثمانيّون على باب الخليل، وقد خُطّ عليها عبارة "لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله"؛ ليعيش أهل الأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية في سلام، ما زالت هذه اللوحة حتى يومنا الحاضر فوق باب الخليل، وهو من أبواب الدخول الرئيسة لمدينة القُدْس؛ لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو النبيّ الذي تتفق عليه الأديان الثلاثة [٢٢].

تقبّل أهالي البلاد التي فتحها المسلمون مبادئ العدل والتسامح التي جاء بها الإسلام واتخذوها دستورًا لهم، وتمسّك السلاطين العثمانيّون بعَهْد سيدنا عُمَر رضي الله عنه أيضًا، وحكَموا هذه المنطقة التي تختلف كثيرًا في بنائها العِرْقي والديني بطمأنينة وسكون، وفي سِجلّ كنيسة القيامة في الأرشيف العثمانيّ نُسخة من معاهدة سيدنا عُمَر رضي الله عنه، وخطّ هُمَايوني وفَرمان.

وعلى سبيل المثال، توجّه بطريرك الروم في القُدْس عام ١٤٥٨م إلى إسطنبول بصحبة رهبانه للتهنئة بفتحها، وطالبوا باستخدام المعابد المسيحية في القُدْس، وإعفائهم من الضرائب، وقاموا بإبراز خطّ الهُمَايون الذي عليه عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم عُمَر، ومَن بعده من السلاطين؛ وبناءً على هذا أوضح السلطان محمد الفاتح لبطريرك الروم: أنه استنادًا إلى العهود التي تفضّل بها حضرة الرسول الأكرم ﷺ وسيدنا عُمَر رضي الله عنه، وجلالة السلاطين السابقين، فإنهم سيتمتّعون بنفس الحرية في أمور عباداتهم، ودُوْر العبادة الخاصة بهم، وسيُعْفون من دفع الضرائب، وهم آمنون على أرواحهم وأموالهم، وأصدر مرسومًا سلطانيًّا بذلك.[٢٣]

وفيما يلي عرض لافتتاحية القرار الصادر من السلطان ياووز بتاريخ ١٥١٧م:

(٢٢) كريم بالجي، "**القُدْس: المدينة الباحثة عن أيامها السعيدة**"، مجلة فيزيون، آذار/مارس ٢٠٠٩، ص ٢٣٩.

(٢٣) BOA. A. DVN. KLS. D. KLS. D. ٠٨/٦ص

المرسوم الذي أصدره السلطان سليم الأول فاتح القُدْس

"أَمْرُ عالي الشأن المعنون بالخطّ الهُمايوني الذي تفضّل به المرحوم حضرة السلطان سليم، فاتح القُدْس الشريف:

وغَضِب الله تعالى على كل من يُخلّ بهذا الأمر الشريف أو يتصرّف بشكل يتناقض مع ما جاء فيه.

بمجيء السلطان سليم إلى القُدْس الشريف، وفتحه لها في الخامس والعشرين من صفر الخير، حضر "أطاليا (*Atalya*)" بطريرك الروم، ومعه جملة الرهبان من الرعايا يُبايعونه، ويُعلنون السَمْعَ والطاعة له، واستمروا يديرون كنائسهم وأديرتهم على

نفس المِنْوال القديم، وقد أمر أن يقوم البَطْرِيَرْك السابق ذكره بالإدارة والتصرف وفْق العَهْد الصادر من سيدنا عُمَر ﷺ، وأوامر السلاطين السابقين...".

وينتهي الجزء الأخير منه على هذا النحو:

" اللهم أنزل غضبك على كل من يخلّ بهذا الأمر؛ وبناءً على ذلك أترك الأمر الهُمايوني في أيدي السابق ذكرهم؛ ليستند إليه كل واحد منهم.

(عام ١٥١٧م، القُدْس الشريف.) ".[٢٤]

لقد ضرب المسلمون في التعايش مع أهل الأديان الأخرى في فِلِسْطين -كما فعلوا في كنيسة القيامة- أروع الأمثلة في التاريخ الإسلامي خلال حُكْم الدَّوْلة العثمانيّة، وقد كَفِل هذا لأهل المذاهب المسيحية أن يتعبدوا مع بعضهم في ضوء مفهوم التسامح والعدالة في الإسلام.

وأكّد هذا "دِرور زيعوي" الذي قام في القرن السابع عشر بدارسات حول القُدْس واستند إلى أبحاث قام بها "عامون كوهين (*Amnon Cohen*)"، قال:

"لقد توحّدت الجماعات اليهودية والمسيحية في القُدْس في ظلّ نظام اقتصاديّ كما هو الحال في المُقاطعات الأُخرى من الدَّوْلة العثمانيّة، ولم تختلف معاملة الدَّوْلة العثمانيّة لهذه الأقليات كثيرًا عن سلوكها مع السكان المسلمين، ومن مُؤشرات ذلك رغبة المسيحيين واليهود في المثول بين يدي قاضي المحكمة الشرعية التي أُسِسَت حديثًا ثقةً منهم بها، رغم أنهم لم يكونوا مُضطرين لذلك".[٢٥]

وفضلًا عن الحرية والعدالة والتسامح الذي كَفِله الإسلام لغير المسلمين فقد حَظَر على غيرهم إقامة مبانٍ حول الأماكن المُقَدسة

(٢٤) BOA, A, DVN, KLS. D. ٠٨

(٢٥) درور زيعوي، القُدْس، دار نشر يورت، وَقْف التاريخ، إسطنبول ٢٠٠٠م، ص ٤.

التاريخيـة الخاصـة بهـم، وحمى لهـم معابدهـم، وحقوقهـم الاجتماعية والثقافيـة، ويُمكننا مـن خلال مُطالعة كثير من وثائق الأرشـيف أن نعرف كيف حكم العثمانيّون بالعدل دون أيّ تفرقة أو تمييز.

وعلـى سـبيل المثـال، فقد جـاء في الأمر المُرسـل إلـى ولاية بيروت بضرورة الاهتمام بالأماكن المُقَدسة عند اليهود والمسيحيين، مثل المعابد والقِـلاع فـي مناطـق الصفد وحيفـا وطبَرية التـي تُعدّ من الآثـار القديمة، وبوجـوب مَنْـع الحِيَل التي يحاول الأجانـب على وجه الخصوص القيام بهـا فـي تلك الأماكن، والعمل على المحافظة على هذه الأماكن كما هي؛ لِمَا تتمتّـع به هذه الأماكن من قدسية وعناية خاصة من اليهود والمسيحيين، وعـدم التصريح ببنـاء مبانٍ أُخرى حولهـا تنفيذًا للأوامـر الخاصة بالآثار القديمة في هذا الشأن بتاريخ ١٣ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٩٨م.[٢٦]

وتحدثـتْ وثيقـة أخرى عـن التصريح بإقامـة مقابر خاصـة في مدينة الطور؛ يدفن فيها من يُتوفّى من أبناء الجمعية البروتسـتانتيّة (*Evangelic*) الأمريكية في القُدْس، ولنقرأْ من الوثيقة التالية القرار الصادر بهذا الشأن:

> "تقرّر أن يقوم مجلس شـورى الدَّوْلة بدراسـة الطلب المُقدم مـن ولايـة القُـدْس بإعطاء ترخيص لإقامـة مقابر فـي قرية الطور للأمـوات من الجمعية البروتسـتانتيّة التي تتألـف من رعايا أمريكا والـدُّوَل الأُخـرى الذين يقيمون في القُـدْس؛ لأنه لا يمكن دَفْنهم في مقابر الأمم الأُخرى لاختلاف العقائد بينهم.
>
> (٢٤ أيَّار ١٩٠٠م)".[٢٧]

وورد فـي وثيقـة أخرى قرار مُرسـل من المركز إلى والـي صيدا يحثّه على حسن مُعاملة السامريين في بريَّة الشام ونابلُس على الشكل التالي:

(٢٦) BOA. DH. MKT, ٢١١٦/١٠٣

(٢٧) BOA. DH. MKT, ٢١١٦/١٠٣

"فـي الوقـت الذي ينبغـي فيه مُعاملـة أفراد الطائفة السـامرية التـي تقطـن برية الشـام ونابلُـس مثلهم في هـذا مثل باقـي رعايا الدَّوْلـة العثمانيّة الآخرين؛ فقد نُقِـل أنهم لا يعاملون مُعاملة لائقة من جانب موظفي الدَّوْلة المحليّين.

ينبغـي عمل اللازم فـي هذا الخصوص؛ لأن مثـل هذا الأمر لا يُرضي سلطاننا الذي لا تنقطـع رحمته وفضله وإحسانه عن كل رعاياه، أطال الحقّ جلّ وعلا عُمَره ومدّ جاهه وسـلطانه! سلطاننا وولي نعمتنا وسيدنا".[٢٨]

وجاء في وثيقة أخرى:

"كذلـك إعـلان مُفتـش حفظ الصحة في الشـام أنه سيُرسـل طبيبيـن وعاملـي نظافـة لاتخـاذ كل مـا يلـزم فـي أمـور النظافـة والصحة بسبب اقتراب عيد الفِصْح الذي سيتوافد الناس من أجله على القُدْس الشريف بكثرة.

(آذار/مارس عام ١٩٠٣م.) ".[٢٩]

وأوضحـت وثيقة أخرى أن طقوس أعياد الميلاد التي أُقيمت في بيت لَحْم قد جرَتْ في جوّ من الطمأنينة، فقالت:

"أقام اللاتينيون بفضل سلطاننا طقوس أعياد الميلاد في كنيسة بيت لَحْم يوم الحادي عشر وحتى صباح ليلة الثاني عشر من شهر كانون الأول/ديسـمبر في جوّ من الطمأنينة، وقد توجّه الحاضرون بالدعاء والشكر لسلطاننا.

(٢٧ كانون الأول/ديسمبر، عام ١٩٠٤م) ".[٣٠]

---

(٢٨) BOA. DH. MKT, ٩٧/٤٨

(٢٩) BOA, A, MKT, MHM, ٥٨٤/١٧

(٣٠) BOA. DH. MKT, ٩١٨/٧٥

obeikandl.com

ولكن روح الانتقام في العقلية الصليبية عكّرت صَفْو الطمأنينة والأمن الـذي حافظت الدَّوْلـة العثمانيّة عليه عدة عصور، ودُمّـر في أثناء الحرب العالميـة الأولـى للأسـف الميـراث التاريخي المُشـترك بيـن الأديان بعد أن حمته الدَّوْلة العثمانيّة بكل دقة وعناية، ورَغْم أن ثماني طائرات حربية للعدو قد أطلقت أكثر من عشـرين قذيفـة على مقرّ قيادة الجيش، وأحيانًا على الأماكن التي فيها مُؤسسات دينية، إلا أنها لم تُحدث خسائر جسمية، لكن هذا الأمر جعل المُنتسبين إلى الأديان كافة يشعرون بحُزْن عميق:

"أحيط علم سيادتكم بأن الأهالي قد اشمأزّوا من هذا التجاوز الـذي يُناقـض اهتمام الحكومـة في المحافظـة علـى دُوْر العبادة الخاصة بالمذاهب المختلفة، والمحافظة على المؤسسات الدينية.

(٢٦ حزيران/يونيو ١٩١٧م) الحاكم/المتصرف عزت".[٣١]

لقـد بُنيـتْ الأرضية المناسـبة -سـواء فـي عَهْـد السـلاجِقَة أو الدَّوْلة العثمانيّـة- لحريـة العقيـدة والاعتـراف بـكل الحقـوق الثقافيـة والدينيـة الضروريـة؛ ليعيـش النـاس فـي هـذا الوقـت حيـاة إنسـانية دون التقيـد بـأيّ تصنيـف، ويُمكن إدراك هذا الأمر من ملابـس الناس وتنوع المعمار فـي البنـاء؛ فإضافة إلى قلاع الناقوس المُمَيّزة لموسـكو التي تأخذ شـكل القُبّـة والمئذنـة والبصلة، نجد أن الملابس الدينية قد تجاورت مـع بعضها فـي الشـوارع، فـلا مـكان سـوى القُدْس يمكـن أن نـرى فيه شـيئًا كهذا، "الدومينيكان" بلباسـهم الفاتح اللون، والمنتسبون لطريقة "الفرانسيسكان" بردائهـم بُنيّ اللـون، و"الأثيوبيون" و"الرومان" بلباسـهم الداكن، والعلماء اليهـود المتدينـون والحاخامـات بردائهـم وعمامتهـم الملونـة، واليهـود الشـرقيّون بدُرَّاعاتهم اللامعة، والأشـكيناز بالمِعْطف والسـروال الأسـود والقبعة ذات الفِرَاء.[٣٢]

(٣١) BOA. DH. EUM,٤. Şb. ١١/٣٢

(٣٢) كوسه، مصدر سابق، ص ٥٨.

ملابس فِلِسْطين المحلية

ولكن ما لبث أن فسد هذا التناسب والطمأنينة في آخر حُكْم الدَّوْلة العثمانيّة؛ بسبب محاولة الدُّوَل الكُبرى -التي تمثّل المذاهب المسيحية الأربعة- التدخُّل في شؤون الدَّوْلة العثمانيّة تحت زَعْم ترميم كنيسة القيامة أو حماية أصحاب مذاهبها، ومما قاله السلطان عبد الحميد للصدر الأعظم سعيد باشا في ذلك الخصوص ما يلي:

"قال: لا تقلق يا باشا! لن يدخلوا في صدام فِعلي معنا بسبب كنيسة القيامة أو أي موضوع آخر يتعلق بالمسيحية؛ لأننا نقوم بدور الحارس المُحايد في كنيسة القيامة، فمن أين لهم أن يجدوا مُحافظًا مثلنا؟! الغرم علينا والغنم لهم! كن على ثقة من أننا لو انسحبنا من هذه الساحات فستتحول إلى ساحة للفوضى والاضطراب أبد الدهر، لا تقلق! إنهم يُثيرون ضَجّة ليحصُلوا على أكبر منفعة؛ فالمعركة الحقيقية هي بينهم هم".[٣٣]

(٣٣) جمال قوتاي، التاريخ يتحدّث، ج. ٧، العدد ٣٥، كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦م، ص ٢٩١٢-٢٩١٧.

٤- العُرْبان باعتبارهم عنصراً اجتماعيًّا

أ- ثقافة العُرْبان والحُكْم العثمانيّ

في التاريخ الإسلاميّ قبائل عُرفت بالعُرْبان، واتخذت من الصحراء موطنًا لها عدّة عصور، واحتفظت بعادات المجتمع الجاهلي ونمَط معيشته؛ فقد كانوا يحملون على إبلهم آلات بسيطة تلزمهم في الصحراء، ويجولون بين الواحات بحثًا عن الماء ومعهم الحيوانات من الماشية والماعز، وكما عُرف عن بعض هذه القبائل أدبهم وصدقهم المتناهي، فقد كان منهم مَنْ يرتكبون أنواع الجرائم بما فيها الإغارة على القبيلة التي يُناصبونها العِداء، والسرقة والنَّهْب.

كان البدو لا يضربون خِيامهم في أيّ مكان لانعدام الأمن بشكل كامل، وعاشوا في خيامهم حياة الرحالة يُغيّرون أماكنهم كلما اقتضت الضرورة ذلك بحثًا عن الماء والطعام لقُطْعانهم.

عاشت هذه القبائل في بلدة العريش على ساحل البحر المتوسط، وفي منطقة "قلاة" النحل الواقعة على الطريق بين مصر وفِلِسْطين، وانتشر عدد كبير من عشائر العُرْبان حول صولطا ومعان وبلقا والقُدْس وصولًا إلى حدود مصر، وتُرشدنا بعض وثائق الأرشيف إلى معلومات مُفصَّلة عن أعداد البدو ومقدار قوتهم المُسلحة؛ فقد بلغت أعدادهم في بعض الوثائق ٥٩٨٦٠ يسكنون ٢٠٥٨٥ دارًا، وبلغ عدد فرسانهم ٤٦٠٢ والمشاة ٧٦٥٠.[٣٤]

(٣٤) BOA. Y. A, RES. ٢٤/٣٨

استمرّ جزء من القبائل البدوية على عاداتهم التي دأبوا عليها مثل الإغارة على القُرى والقيام بأعمال السَّلْب والنَّهْب، رَغْم دخول فِلِسْطين تحت حكم الدَّوْلة العثمانيّة، بينما التحق قسم آخر بالقوات المُسلحة التابعة للحُكّام المحليّين وأصبحوا من جنودهم، حتى إن مُقاطعة لجُّون قد تُركت أمانة لعائلة طورباي، وفي عام ١٥٨٤م تمّ توسيع الأراضي التي مُنِحت للشيخ البدوي أبي أويس مُقابل حمايته الطريق الساحليّ المُؤدّي إلى رأس العين، حتى أصبحت على شكل تِيمار يبلغ إيراده السنويّ ٢٠٠٠٠ أقجة، وكما هو معروف كانت إدارة الولاية تستفيد من البدو للحفاظ على الطريق المُؤدي إلى الحجّ، وقد كان للبدو مع خِدْماتهم إسهامات اقتصادية أخرى، مثل تربية الخيول والأبقار والماشية، وتوفير الإبل للنقل.[٣٥]

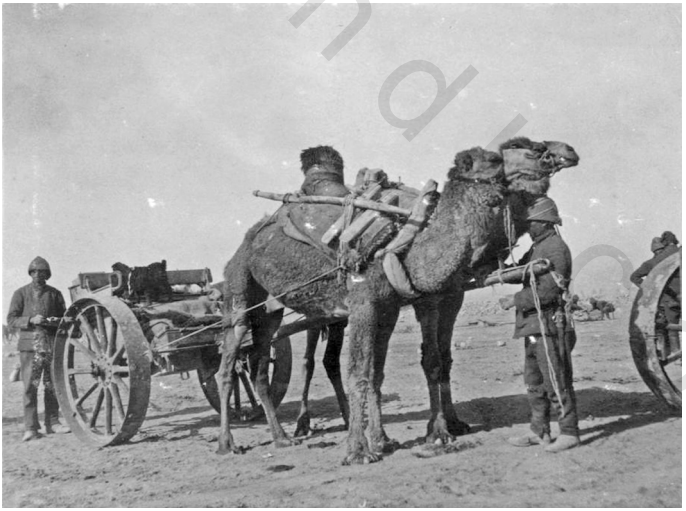

إبل النقل

[Kong. Ktp. Lc-DIG- ppmsca (١٩١٥) -١٣٧٠٩ - ٠٠٠١٤]

(٣٥) درور زيعوي، **القُدْس**، ص ١٠٨، ١١٢، ١١٨.

تحـوّل البدو الذين عُرِفوا بالعُرْبان المُسـلحين إلـى عنصر هدّد الأمن والطمانينـة فـي الوقـت الـذي ضَعُفت فيـه الدَّوْلـة العثمانيّـة، وبلغت فيه الأزمـات الاقتصادية في كل مكان حدًّا لا يُطاق، وتذكر وثائق الأرشـيف المعـارك التـي جـرَت مـع العُرْبـان؛ فعلى سـبيل المثال طُلِبَ فـي القرار المُرسل إلى أمير أمراء الشام ما يلي:

"يُقْبـض على "بركات" والأشـخاص الآخرين ممن ثبَت أنهم دبّروا معه إثارة الفتنة، ويُقتصّ منهم؛ نظرًا للنزاع الدائر بين قبيلتي قيسـي ويُمنى منذ القِدَم، وهم مـن أهالي خليل الرحمن، حتى إن النـاس لـم يسـتطعوا أداء صلاة الجمعـة من الخـوف، وقد أعلن أهـل المنطقة عن نيتهم ترك أوطانهم إذا لم يُقْضَ على الشـخص المسؤول عن تلك الفتنة، وهو "بركات" الذي سبَق ذِكْره".[٣٦]

لـم تكتـفِ الإدارة المركزيـة بإصـدار قرار لأمـراء المُقاطعـة في هذا الشأن، بل قدمت الدَّعْم للحُكّام المحليّين وكافأتهم على نجاحهم، وعلى سبيل المثال حدَثتْ مشكلات كبيرة في عام ١٦٠٥م، ونجح أمراء مناطق لجُون والصفَد وعجلون في السـيطرة على قُطّاع الطريق الذين كانوا سـببًا فـي نشـوب تلـك الأحـداث؛ فنـال أمـراء هـذه المنطقـة رضا السـلطان وإحسـانه،[٣٧] وجـاء فـي وثيقـة أخرى قيام مناوشـات كبيرة بيـن العُرْبان والقَرَوِيّيـن عـام ١٨٥٩م، وأن حاكم القُدْس ثريّا باشـا بـذل جُهْده لتهدئة الأمور، وعاش الأهالي في طُمَأْنينة وأمان؛ فنال ثريا باشـا رضا السـلطان وإحسانه أيضًا.[٣٨]

كان طريـق الحـج يمرّ من منطقـة قبائل العُرْبان في أراضي فِلِسْـطين، وهذا يُمثل مصدرًا للرزق عندهم؛ فكانوا يُحصِّلون من الدَّوْلة خراجًا سنويًّا

(٣٦) – BOA دفاتر المُهمّات ٥: ٢٤٨.
(٣٧) BOA. A. DVN. MHM, ٧٥/٥٤٨
(٣٨) BOA. I. DH, ٤٤٢/٢٩١٧٤

باسم "صُرَّة العُرْبان"؛ لئلا تتعرّض قوافل الحجّ للهجوم، وإن تخلّفت الدَّوْلة عن دَفْع صُرَّة العُرْبان أو رأى العُرْبان ما دفعته غير كافٍ، قام قُطَّاع الطُّرُق منهم بهجوم دمويّ على قوافل الحجّ، وقتلوا الحجيج، وسلَبوا ما معهم من أموال وأغراض، وبعد انتهاء موسم الحجّ كانوا يقضون أوقاتهم في الإغارة على أعدائهم، ويُطلقون على الإغارة اسم الغزوة، وكانوا ينظرون إلى هذه الهجَمات على أنها مصدر شرَف وعِزّة لرجال القبيلة.

لقد أرهق العُرْبانُ الدَّوْلة العثمانيّة كثيرًا من ناحية الأمن والنظام العام؛ لهذا قامت الدَّوْلة في الأوقات التي يختلّ فيها الأمن العام بإنشاء مخافر للشرطة، وعلى سبيل المثال جاء في وثيقة بتاريخ ١٥ آذار/مارس١٩٠٦م أن قبيلة رميلان قد تعرّضت لسرية عسكرية أُرسلت لاستطلاع أراضي الرفاه وأم الكلاب وجيسي، وهي من أراضي السلطان في منطقة القُدْس، وأسفر هذا البحث عن ردّ أبناء هذه القبيلة -وتتكون من مائتين وخمسين خيمة وقد تعدَّوْا على حدود الأراضي- إلى أماكنهم القديمة، ومع ذلك طلَب حاكم القُدْس إنشاء مخافر الشرطة والسجون وزيادة أعداد الجنود؛ لازدياد شغب قطاع الطُّرُق.(٣٩)

قام رجال الإدارة في الدَّوْلة العثمانيّة باتخاذ تدابير خاصة من الناحيتين الاجتماعية والإدارية في موضوع العُرْبان، فقاموا بحلّ النِّزاعات التي نشبَت بين العُرْبان في منطقة القُدْس عمومًا بواسطة من يرتضونه حكَمًا بينهم أو عن طريق التصالح، دون أن يذهبوا بشكواهم إلى المحاكم.(٤٠)

ومن أهمّ الخِدْمات التي بذلَتْها الحكومة العثمانيّة من أجل العُرْبان في فِلِسْطين جهودها في تحقيق تقدُّمهم من الناحية التعليمية والاقتصادية والاجتماعية، ومنحت العُرْبان الأراضي حتى يتحوّلوا لحياة الاستقرار بديلًا من التَّرْحال، وبذلت الجهود لنهوضهم بالزراعة وتربية الحيوان.

(٣٩) BOA. I. HUS ١٣٩- ١٣٢٤ M/٥٤

(٤٠) BOA. HR. SYS, ٤١/٣

وبناءً على رغبة السلطان أرسلت الحكومة العثمانيّة عام ١٨٩١م خمسة من كبار المسؤولين في الدَّوْلة إلى غزة مع موظف دائرة تسجيل الأراضي؛ لتعيين حدود أراضي كل قبيلة من القبائل وتحريرها في عقود ملكية، وإذا ما وافقت الهيئة العسكرية هنالك تُقسَّم خمسة ملايين دونُم من الأراضي التي تتجاوز مساحتها عشرة ملايين دونُم بين المالك أو المتصرف الأول والعُرْبان وتُحرّر في عقود أو صكوك ملكية،[٤١] ومن الجهود التي بذَلتها الدَّوْلة العثمانيّة لتحويل العُرْبان من حياة التّرْحال إلى الاستقرار أنها منعت دخولهم تحت سيطرة الإنجليز وتأثيرهم.

والجهود التي بُذلت من أجل تطوير الزراعة وتربية الحيوانات هي من أهمّ الخدمات التي قدمتها الدَّوْلة العثمانيّة من أجل العُرْبان، بل من أجل الشعب بأكمله في فِلِسْطين في ظلّ الأزمة الاقتصادية.

على سبيل المثال كانت الدَّوْلة العثمانيّة تُشجّع على تربية الخيول؛ وذلك بتنظيم سباق للخيل في موسمي الربيع والخريف بين العُرْبان رغبةً منها في تحسين الخيول العربية وزيادة أعدادها.[٤٢]

وكان الأهالي يُعانون من أجل محاصيلهم في أوقات الجفاف في القُدْس وما حولها، وقد شجّعت الدَّوْلة العثمانيّة على زراعة البطاطا؛ لأنها من المحاصيل التي لا تتأثّر كثيرًا بالجفاف وهجوم الجراد، وقامت بإعفاء هذا المحصول من العشور مدة خمس سنوات.[٤٣]

لقد حقّقت الدَّوْلة العثمانيّة كثيرًا من الدَّعْم الاقتصاديّ والاجتماعيّ، مثل تحويل العُرْبان في منطقة فِلِسْطين من حياة الترحال إلى الاستقرار، وتوزيع الأراضي عليهم لتحسين وَضْعهم المالي، بيد أن طائفة العُرْبان

(٤١) BOA. I. MMS, ١٢٢/٥٢٢٩

(٤٢) BOA. DH. MKT, ١٠٣٠/٣٣

(٤٣) BOA. DH. MKT, ٢٠٧/١

كانت سببًا في تكدير الدَّوْلة من الناحية الأمنية في كثير من الأوقات؛ فقد أصبح بعضٌ منهم آلةً بيد الإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى.

ب- الإنجليز والعُرْبان

أصبح العُرْبان بعد أن استقرّوا في وضع يُشجّع الآخرين على استخدامهم في الأحداث السياسية، وكان الإنجليز قد حسّنوا علاقاتهم نوعًا ما مع شيوخ العُرْبان في آخر عَهْد الدَّوْلة العثمانيّة، وكانت إنجلترا تُرسل وفودًا خاصة إلى المنطقة في أوقات مختلفة من كل عام؛ لبسط نفوذها على قناة السويس والمناطق المُجاورة، وتقوم بتوزيع الهدايا والهِبات على العُرْبان والأهالي والمشايخ الذين يسكنون المنطقة لكسْب وُدّهم،(٤٤) وكان العُمَلاء من العسكريّين الذين قدموا إلى المنطقة بصفة وفد علميّ يقومون بأبحاث خاصة عن الآثار، ويُخرجون خرائط صحراء سيناء ومنطقة فِلِسْطين، ويُغدقون الأموال على القبائل، كما كانوا يخصّصون راتب تقاعُد لمشايخ البدو، وبهذا الشكل كانوا يُسيطرون على شيوخ البدو.

كان السبب في محاولات توطين العُرْبان هو دخولهم تحت سيطرة الإنجليز، وكانت الإدارة في آخر عَهْد الدَّوْلة العثمانيّة قد أوشكت أن تؤول لرُؤَساء القبائل في المناطق الممتدة من العريش، وتُمثّل بداية حدود ساحل البحر المتوسط من مصر، وصولًا إلى ساحل البحر الأحمر وحدود مدينتي نابلُس وصالط؛ والسبب في ذلك هو أن الدَّوْلة العثمانيّة لم تُعيّن شخصًا من جانبها في تلك المناطق، وتزايدت أهمية وضع هذه الأماكن تحت سيطرتهم بعدما تباحث الأجانب مع العُرْبان على مسألة الحدود المصرية.(٤٥)

(٤٤) BOA. Y. PRK. UM, ٢٣/٦٦

(٤٥) BOA. Y. a. RES, ٢٤/٣٨

اتخـذت الدَّوْلـة تدابيـر سـريعة فـي مُواجهـة التحـرُّكات الإنجليزية، وحقّقـت بعـض النجـاح كذلـك، وفـي عـام ١٨٨٣م التقـى الإنجليـزيّ "لارينـس أوليفنـت (*Larence Oliphant*) " برئيـسٍ بـدويّ عنـد زيارتـه للمنطقة، وأخبر الرئيس البدوي أولبفنت "أنهم فعلوا كل شيء طلب منهم مـن قبـل، وبإمكانهـم إدارة جماعـة مُكوّنة من ٣٠٠٠- ٤٠٠٠ شـخص، لكنهـم رَغْم هـذا يتعرّضون للضغوط، وأصبحـوا مُضطرين إلى الانصياع لتعليمات أصغر مُوظفي الدَّوْلة"، لكن أجمع الرحّالة الذين جالوا المنطقة علـى أن تهديـد البـدو ضعُـف مـا بيـن عامـي ١٨٧٢ و١٨٩٠م تدريجيًّا، وأن الدَّوْلة العثمانيّة أصبحت أكثر قوة، واسـتطاعت أن تُسيطر على البَدْو المُعتديـن، وأن تُحصّـل الضرائـب مـن أكثر العشـائر عِصيانًـا، ووجدت هذه العشائر نفسها مُضْطرة إلى الاستسلام للدولة، ولاحظ "أوسيس خان (*Usis Khaine*) " عـام ١٨٩١م أن الطريـق إلى القُدْس لم يَعُد يحتاج إلى مـن يقـوم فيه علـى حفظ الأمن، وأن هذه الطُّرُق لـم تَعُد خطيرة حتى في سـاعات الليل المُتأخّرة كما كان من قبل، وتمّ مُعالجة تدنّي وَضْـع الأمن الاجتماعـيّ تدريجيًّـا اعتبارًا من النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر، وتحقّق الأمن في فِلِسْطين.(٤٦)

ورَغْـم كل هذا اسـتمرّ الإنجليز في تطويـر علاقاتهم مـع العُرْبان كلما سـنَحت لهـم فُرْصة، وفي الوقت الـذي كانوا يُطوّرون فيـه علاقاتهم مـع قبائل العُرْبان قبل الحرب العالمية، كانوا يبحثون كذلك عن سُبُل للتعاون مـع الشـريف حسـين الـذي خضـع للإقامـة الجبريـة في عاصمـة الدَّوْلة العثمانيّـة، كانـت سياسـة الإنجليز ترمي إلـى انتزاع الخلافة من السـلالة العثمانيّـة، وتتحيّـن الفُـرَص كـي تمنحهـا لعائلـة تخضـع لسياسـتها في شِبْه الجزيرة العربية ومصر، ولمّا أقنـع الإنجليز الشريف حسين بأنهم

(٤٦) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٨٩.

سيجعلونه مَلِكًا على العرب، ونجحت سياستهم معه ومع قبائل العُرْبان الذين تُرِكوا في ظلمات التاريخ، عندئذٍ ظهر مشروع "العِصيان العربيّ".

كان الإنجليز سببًا رئيسيًّا في قيام الحرب العالمية، وظلّوا قبل الحرب وبعدها يُدافعون بقوة عن هذا المشروع، وظلّوا يخدعون البدو قبل الحرب بأنهم سيُخرجونهم لملاقاة الجيش العثمانيّ، وأن الخلافة ستؤول للعرب؛ فكان من مصلحتهم أن يُظهر العرب العِصيان حتى يُغذّوا فكرة الانفصال بين المسلمين، وإذا ما أُضيف إلى ذلك الفكر التركيّ الحديث، فلا بُدّ أن يُصبح العرب من العُصاة قطعًا، وما حدث هو أن الأحداث التاريخية لم تؤيد هذه الادعاءات لعدم مِصداقيتها؛[٤٧]

> "لأن التاريخ لم يُسجّل يومًا ما عداوة أو حربًا بين العرب والترك، بل على العكس من ذلك كانوا يُقاتلون معًا ضدّ العدوّ الخارجيّ"[٤٨].

(٤٧) رمضان بالجي، **فِلِسطين**: الجبهة التي هدمت الدَّوْلة العثمانيّة، نشر نسِل، إسطنبول، ٢٠٠٦م، ص ٧٢-٧٥.

(٤٨) كمال قاربات، **نظرة عامة على العلاقات العربية-التركية**: ماضيا، وحاضرا، ومستقبلا، بحوث المؤتمر العالمي الأول، ١٨-٢٢ تموز/يوليو ١٩٧٩م، جامعة حاجت تبه، أنقرة.

obeikandl.com